مواقف أعيان الاغــواط من سلطة الأمير عبد القادر والاحتلال الفرنسي للمنطقة دراسة تاريخية لسيكولوجية الزعامات المحلية

أ. د. علي غنابزية ـ قسم العلوم الإنسانية ـ جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي : الجزائر.
أ. فاطمة دجاج ـ قسم العلوم الإنسانية ـ جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي : الجزائر.

الملخص:

يمثل هذا المقال دراسة تاريخية لسيكولوجية الزعامات المحلية في منطقة الاغواط، وعرض حياتهم السياسية، ومواقفهم المتباينة، التي اتخذوها نحو سلطة الأمير عبد القادر، أو تجاه الاحتلال الفرنسي للمنطقة، وتم استعراض الأحداث التاريخية في بداية القرن 19م؛ وتلاها بلورة المنهج العلمي لدراسة الحالة النفسية للزعماء، مستمدا من علم النفس، وعلم السلوك الإسلامي، بتطبيق المناهج العلمية، والتوغل في نفوس الأعيان والزعماء، ووضع مواقفهم التاريخية في بساط البحث، والتركيز على الظروف التي دفعتهم لاتخاذ تلك المواقف، ومدى تأثير حب السلطان، وتمكنه من النفوس، والبحث عن المصالح الشخصية والمكاسب المادية، أو البواعث الروحية، لتحقيق أهداف الطريقة الصوفية، أو تمكين القبيلة من زمام السلطة في المنطقة، وقد أظهرت ـ الدراسة السيكولوجية ـ نتائج مهمة للبحث العلمي .

الكلمات المفتاحية: الكلمة المفتاحية الأولى، الأغواط، الأعيان، الأمير عبد القادر، الاحتلال الفرنسي، الحاج العربي، أحمد بن سالم.

The positions of the Leaders al-Aghawat from the authority of Prince Abd El Kadir and the French occupation of the region are a historical study of the psychology of local leaders

Abstract:

This report shows the historical study of the local leadership psychology in El Aghwat's region, offers thier political life, and the various attitudes that they took towards the power of El Amir Abd El kadir or towards the french colonization of the area. Also, it reviews the historical events in the biggining of the 19 th centery; followed by crystalization of the scientifical method in order to study the psychological state of the leaders which had been taking from Psychology, and the Islamic Bihavioral Science. All of this done by using the scientifical methods, getting inside the spirits of the leaders, investigating the historical attitudes and focusing on the circumstances that leads them to have their attitudes .As well as the effect of the love of Sultan and his spiritual attraction, the quest for personal advantages, financial gains, and the spiritual motives in order to achieve Sofi method's goals or enable the tribe to take the power of the area. Indeed- the psychological study- showed- crucial results of the scientific study.

Key words: EL Aghwat, the Leaders , El Amir Abd El Kadir, French occupation , Hadj Larbi, Ahmed ben Selme.

مقدمة:

لكل مجتمع رموز وشخصيات، واعيان ووجهاء، وأبطال وزعماء، يوجهون سلوك الناس في محيطهم الاجتماعي، ويبنون العلاقات النافعة، ويمتنون الصلات بين أبناء العائلة الواحدة، ويقربون بين القبائل المتعددة، ويتزعمون المجتمع، ويسعون إلى صلاحه وإصلاح شأنه، وتطوره في شتى الميادين. وعندما تحتدم الأحداث السياسية، والصدامات العسكرية، يتطلب منهم المجال، التدخل السريع، لوضع حد للمستجدات الخطيرة التي تهدد الجماعة المحلية، وتكون مواقفهم مؤثرة، تعبر عن قيمهم ومبادئهم، وسلوكهم الروحي، ورصيدهم الفكري.

وكانت العائلات الكبيرة في منطقة الاغواط ـ قبل الاحتلال الفرنسي ـ تتقاسم فيما بينها النفوذ، الذي تستمده من مكانتها الاجتماعية المرموقة، أو من سلطتها السياسية أو من منزلتها الدينية والروحية، وهذا جعل المنطقة تقع تحت نفوذ تلك العائلات المتزعمة للموقف، وفي مقدمتها عائلة احمد بن سالم، الذي ينحدر من أولاد زعنون الهلاليين، وعائلتهم المشهورة توالت على الحكم في مدينة الاغواط منذ عهد الأتراك، والشخصية الأخرى مثلها الحاج العربي، وهو حفيد المرابط المشهور سيدي الحاج عيسى الذي استقر فيها منذ 1662 قادما من تلمسان . ويعتبر المقاوم ابن ناصر بن شهرة، من الرجال الأكثر بروزا في المنطقة، فجده فرحات كان شيخا وزعيما على قبائل الأرباع، وتولى بعده ابنه ابن شهرة، وكان مؤهلا لهذا المنصب مما يدل على رفعة شانه وشان عائلته. وأما قصر عين ماضي فقد كان تحت نفوذ الشيخ محمد الصغير زعيم الطريقة التيجانية الذي ملك السلطة والنفوذ على كل سكان الصحراء. ومن خلال ما سبق نطرح السؤال التالي : بماذا تميز موقف أولائك الزعماء من التغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة وفي مقدمتها تحركات الأمير عبد القادر في محاولاته توحيد البلاد، والاحتلال الفرنسي للأغواط وتغلغله فيها، وكيف تعاملوا معه ؟ وما هو رد فعل الاحتلال الفرنسي ؟ وبماذا تميزت مواقف الزعماء منه ؟ ومدى ارتباطهم بالمقاومة الشعبية المسلحة، بين موقفي المساندة والدعم والممارسة، أو الرفض والتنكر ومساعدة المستعمر على إجهاضها. وترتب عن ذلك تسجيل صفحات من التاريخ المختلط بالمآثر الجليلة حينا، والمواقف المخزية في أحيان أخرى، والذي يبرز جانبا هاما من الحقائق السياسية، في أحرج الأوقات التي مرت بها الجزائر في تاريخها الحديث.

ولا شك أن مواقف الزعماء المحليين، صادرة عن نفسيات متباينة التقدير، ومتفاوتة في الحسابات الآنية، والثمار المستقبلية، وكلها نابعة من طبائع متأصلة لدى أصحابها، أو بتأثيرات خارجية، ولا يكشف عنها إلا "علم السلوك" الإسلامي، لأن بعضها يستند إليه في الممارسات السياسية، أو "علم النفس" الذي يقوم على المنهج العلمي، ويتعمق في الكشف عن نفوس الزعماء، ويدل علميا على مواقفهم ومرتكزاتها، وهذا في وقتها وحضورها؛ ولكن في هذه الدراسة، فان الزعماء غابوا في الماضي التاريخي، فحاولنا أن نحدد منهجا ممزوجا بين العلوم السابقة الذكر، وبين المقاربات المنهجية، لتحليل مواقف الشخصيات التاريخية الفاعلة، والولوج إلى أفكارهم، والعوامل النفسية التي أثرت فيها، وطبيعة كل شخصية، ومنطلقاتها الفكرية، والروحية، وأمزجتها النفسية والسلوكية.

وقسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام، أولها تقديم سرد حول الأحداث والمواقف في منطقة الاغواط، بالاعتماد على المنهج التاريخي، واتبعته بمبحث حول مناهج وطرق التحليل النفسي لشخصية الزعيم، وختمته، بالدراسة التاريخية السيكولوجية، التي جمعت بين طرفي الموضوع، وتعمقت في تحليل مواقف الزعماء المحليين، باستعراض معالم حياتهم، وحيثياتها العملية، وأخضعت المواقف بدقة للمناهج السالفة، وكشفت الدراسة عن نتائج جيدة، كما يمكن اعتبارها منهجا علميا فيه تجديد، ويمكن استعماله وتطويره في دراسات مستقبلية .

ـ أولا: الدراسة التاريخية السردية:

تقع مدينة الاغواط في قلب الجزائر، وتبعد عن مدينة المدية قاعدة بايلك التيطري بنحو 275 كلم، وصارت تابعة له منذ 1584، وعندما سقطت الجزائر في يد الفرنسيين، وبدئوا توسعاتهم في البلاد، بقيت الاغواط في مد وجزر، وصراع عليها بين الأمير عبد القادر، والفرنسيين خلال عقدين، وسجل سكانها مواقف جديرة بالتنويه والتسجيل:

1ـ مواقف سكان الاغواط وأعيانها من سلطة الأمير عبد القادر:

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830م شديد الوقع على القطر الجزائري كله ومنه الاغواط ، التي أبت إلا المشاركة في دفع المستعمر الغازي، بإرسال جيش منها نحو العاصمة بقيادة " الحاج موسى الأغواطي"، ولكنه توقف عند مشارف البليدة [1]. ولما بويع "الأمير عبد القادر" زعيما وطنيا للمقاومة سنة 1832م، بدأ في بسط نفوذه على المناطق الهامة، ومنها مدينة "المدية"، لكونها عاصمة قديمة، وبقيت تعيش في الفوضى بعد الاحتلال، ودخلت في طاعة الأمير سنة 1834، وبقيت منطلقا للمقاومة إلى سنة 1837، حين قدم إليها الأمير ـ بعد معاهدة التافنة ـ وعين عليها خليفة جديدا من قبله وهو محمد البركاني، وهذا مكن الأمير وفتح له الطريق لبسط سيادته على المناطق الجنوبية، ومنها الاغواط [2]، التي كانت مركزا مهما ، ولها النفوذ السياسي، وتتلوها عين ماضي، التي تمتعت بالصيت الروحي، وكانت البلاد حينئذ تخضع لتأثير عائلة "احمد بن سالم" سياسيا ، وعائلة " ابن الحاج عيسى " روحيا [3].

وشهدت الأغواط سنة 1837م، عدة مشاكل منها اعتراض "الحاج العربي " خليفة أولاد سرغين على" أحمد بن سالم "حول حيازة بعض الملكيات مما أدى إلى طرد "الحاج العربي" من الأغواط. وكان لهذه القضية وقعها على أهل البلاد وصادف ذلك زيارة " الأمير عبد القادر" إلى النواحي الجنوبية لتنظيم دولته، فقدمت إليه حشود من الأغواط لإخباره بأحوال المنطقة وطلبوا منه أن يولى عليهم من يسوسهم ويضبط بلادهم. فسارع إلى اختيار الحاج العربي خليفة له في المنطقة:

أ ـ موقف الحاج العربي:

عرف الأمير بميله إلى تقديم الأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم لذلك ربط علاقات مع" الحاج العربي بن الحاج عيسى" حفيد المرابط القديم " الحاج عيسى " ثم ولاه على تلك النواحي بما في ذلك الأغواط وعين ماضي وتاجموت ، ودعمه بالسلاح والذخيرة وزوده ب 70 جنديا [4]. وحسب دوماس فان"الحاج العربي" الناسك ـ كما وصفه ـ سيكون آلة قوية بين يدي الأمير الذي هو نفسه ناسكا ، ويريد السيطرة عن طريق الحكم

الديني وخاصة انه أعاد إليه حكم مدينته الذي فقده،[5] وفي الواقع فان هذا الأخير ينتمي للعائلات الأكثر أهمية في الاغواط [6]. وللإشارة فان الشيخ " محمد الصغير التيجاني " أيد هذا الاختيار في الظاهر على الأقل، ولكن ذلك لم يرض" احمد بن سالم " فبقي يتحين الفرصة لتحويل السلطة إليه [7].

وقد استطاع الخليفة الجديد أن يجمع بقرية سيدي بوزيد قوم الأحرار وأولاد خليف وأولاد شايب والاغا جلول آغا جبال العمور. وكذلك وصله ولاء شيخ الزاوية التجانية " محمد الصغير التجاني " مرابط عين ماضي ثم تحرك إلى الأغواط وقدم له البيعة الكثير من السكان خاصة الأحلاف الذين أيدوه ، أما أولاد سرغين فقد رفضوا الاعتراف به ، ولذلك فان موقف "أحمد بن سالم " أصبح حرجا ، ولم يكن مستعدا للقتال فانسحب عند صهره ا بن ناصر بن شهرة قائد الأرباع بعض الوقت، وحينما شعر بالخطر يداهمه انتقل إلى بني يزقن في غرداية[8].

ب ـ موقف الشيخ محمد الصغير التجاني :

لقد أدرك الأمير أهمية الصحراء ، باعتبارها نقطة ارتكاز للمقاومة ، وفيها موردا هاما من الذخيرة والرجال ، فسعى إلى ضمها، فلصطدم بمقاومة أعيان الأغواط الغرابة وفي مقدمتهم "محمد الصغير التجاني[9].

ولقد لعب العامل الطرقي دورا كبيرا في هذا الخلاف، فكل طرف يرى في الآخر على أنه زعيم طريقة يريد نشرها وتوسيع نفوذها،[10] فمحمد الصغير التجاني لم يكن ينظر للأمير كزعيم وطني بقدر ما كان يرى فيه زعيما للطريقة القادرية، وهذه النظرة تكونت لدى "محمد الحبيب التجاني " ، لأن أهل سهل غريس غدروا بالتجانيين أثناء ثورتهم ضد العثمانيين في معسكر سنة 1827م . فمنذ ذلك الحين أصبح التجانيون لا يثقون في أتباع القادرية ولا يحبذون التعاون معهم، باعتبار والد "الأمير عبد القادر" كان مقدما للطريقة القادرية ، فان دعوة هذا الأخير كانت محل شك لدى التجانيين، إضافة إلى الاختلاف العقائدي بين الطريقتين التجانية والقادرية ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها الأمير إلى محمد الحبيب التجاني يتهم فيها التجانية بمخالفة المذهب المالكي[11].

وللإشارة فان الأمير اتصل مرارا " بمحمد الصغير التيجاني " محاولا ضم السلطة التيجانية إلى سلطته، إلا انه رفض ذلك بل اتصل التجاني بمريده وتابعه، "احمد بن سالم" في الاغواط ، ويستثير الناس لمواجهة الأمير وحربه، بل انه حذره من القدوم إلى عين ماضي حتى انه أرسل رسالة إلى بعض أهل الاغواط يذكر فيها انه خليفة الله في أرضه، وأخرى إلى حاكم الجزائر يقترح عليه أن يشغل الأمير من جهة البحر ويكفيه من جهة البر[12].

وتحركت قوات الأمير عبد القادر يوم 12 جوان 1838م متوجهة إلى عين ماضي ، وكان جيشه يتكون من 2000 مشاة و 300 فارس ومدفع واحد ، حسب مارسيل ايميرت . أما سانت أرنو فيذكر 2000 فارس، ومدفعين ،110 قذيفة و 100 مشاة[13].

وبعد عشرة أيام من السير الشاق عبر الفيافي والرمال وصل جيش الأمير إلى حصن عين ماضي ، فكان وصوله مفاجأة كبرى للتجاني فاندهش لضخامة هذه القوة. ولم يكن معه سوى 166 رجلا من أولاد سرغين تحت قيادة"يحيى بن سالم" و 170 من أولاد صالح(الأرباع)، و 17 من سكان الغيشة، و 20 من تاجموت، و 22 من حوتة، و15 من الأجانب من مختلف الأصول كاليهود والزنوج ، وقدرت قواته بحوالي 710مقاتل [14]. وللتخلص من قوات "احمد بن سالم" استعمل الأمير الحيلة وعرض عليه انه إذا سحب قواته فانه سيعيد إليه حكم الاغواط ففعل[15] .

وتذكر المصادر أن الحصار على عين ماضي دام حوالي ثمانية أشهر، والتزم الأمير بهذا الحصار لأنه أدرك أهمية المسألة وعواقبها بحيث إذا رفع الحصار واعترف بفشله فان جميع المناطق الصحراوية ستفلت من قبضته وتتمرد عن سلطته لتقع فريسة للتوسع الاستعماري ، لذلك أعلن أنه يفضل الموت على الاستسلام ، فلستغلت السلطات الفرنسية الفرصة لتعبر عن تعاونها معه وفق معاهدة التافنة، فأهداه الحاكم العام "فالي" ثلاث مدافع حصار مع ذخيرتها ،[16] ولا شك أن هذه الهدية قد رجحت كفة الأمير وأجبرت التجاني على الاستسلام في 22 نوفمبر 1838م، وتم إمضاء معاهدة بين الطرفين تعهد فيها التجاني بالجلاء عن عين ماضي حسب الشروط التالية[17]:

- أن يدفع التجاني مصاريف الحصار.
- أن يخرج من المدينة في غضون 40 يوما.
- أن يأخذ كل أمواله المنقولة بلا استثناء.
- لأهل المدينة حق مرافقة التجاني بأسلحتهم.
- أن يرفع الأمير الحصار عنهم ويرجع 8 أميال عن المدينة حتى يتم الإخلاء.
- أن يبقى ابن التجاني عند الأمير رهينة إلى إتمام المعاهدة[18].

فقبل التجاني هذه الشروط المذكورة وأمضى عليها وأرسل ابنه معها فأمنه الأمير . ودخل الأمير إلى قصر عين ماضي دون مقاومة يوم 13 جانفي 1839م [19] . وبعد نهاية الحصار سارت الأمور على هذا النحو:

يبدو أن" الشيخ التيجاني" لم يدخل تحت طاعة الأمير إلا مرغما، كما اسلفنا الأمير الحرب مع الفرنسيين، كل ذلك جعل سلطة الأمير هناك تعاني الضعف، وساعد خصومه على التحرك ضده، إذ انتقل "التجاني " إلى الأغواط وتحالف مع" بن سالم " ضد خليفة الأمير" الحاج العربي" الذي اضطر أمام المكائد إلى الانسحاب من الاغواط [20]. وحسب دوماس فان هذا الخليفة الذي تم تعيينه من طرف أجنبي عن المنطقة، ويعني بذلك" عبد القادر" قد وجد نفسه وجها لوجه مع الكراهية القوية للحزب الوطني بالأغواط ، القوي بالداخل بوجود بن سالم والتيجاني وقوي بالخارج بتعاطف الجماهير [21]. وبالتالي لم يتمكن " الحاج العربي " من توطيد سلطة الأمير على الاغواط وما جاورها من الصحراء، وعجز عن جلب" احمد بن سالم" في الاغواط و" احمد التيجاني" في عين ماضي إلى كنف الأمير، الذي عزله وأعطي السلطة إلى ابن سالم، الذي وقف أثناء حصار عين ماضي، بجانب التجاني، وتردد في موقفه، ومعاملته لأهل الاغواط ، قد جعلت الأمير يعزله هو الآخر. [22]

ج ـ موقف قدور بن عبد الباقي: عين الأمير " قدور بن عبد الباقي البصري" خليفة على الاغواط سنة 1839، ولم يكن من سكانها، بل من أهل تاكدامت، فقد توسم فيه الأمير قوة الشخصية والطاعة، [23] فتقدم هذا الخليفة، نحو الاغواط بقوة قدرت بسبعمائة(700) رجل، مدعمين بقطعة مدفعية، ولكن لم يستقبل بالترحاب، ولم يحض بالقبول[24]، ومع ذلك تمكن من دخول المدينة وبسط نفوذه عليها [25]. وحينئذ كلفه الأمير بجمع أعيان وشخصيات الأغواط، ويتولى إعدامهم أو على الأقل يبعث بهم إلى ـ عاصمة الأمير ـ تاقدمت ليقتص منهم الأمير [26]. رغم نصائح مساعديه، آغة أولاد شايب الجديد بن يوسف، وآغة أولاد خليف الخروبي[27]، على عدم تنفيذ هذه الأوامر الخطيرة، فان " قدور" أصر على تنفيذ هذا الأمر فاستدعى أعيان الأغواط ، دون أن يعلموا بنواياه ، وقد كبلهم بالحديد الواحد تلوى الآخر حين وصولهم، ومنهم أحمد بن سالم، ويحيى بن معمر، وحوالي عشرة شخصيات أخرى

من الأعيان. ولما علم سكان الأغواط بالأمر اشتد غضبهم وانفجرت مظاهرة عارمة ، وتمكن المتظاهرون من قتل كل الجنود الذين اعترضوهم. وعندما رأى " قدور" هول الموقف أسرع إلى إطلاق سراح المساجين ليخفف من غضب الأهالي، ولولا براعة الآغا الجديد والخروبي اللذين استطاعا إنقاذه لهلك هو أيضا [28]. وهكذا تحرك حزب بن سالم والتجاني ضده وأشاعوا عنه انه جاء إلى الاغواط لجمع الضرائب ، واسر الأعيان، وهدم المدينة ، وكانت نتيجة الثورة اضطراره إلى الخروج، ومغادرة المدينة [29]. وواصل جهاده مع الأمير حتى استشهد قدور في معركة عين الكرمة بالغرب الجزائري في ماي 1842. [30]

أما في الاغواط، فقد استؤنفت الحرب من جديد في سنة 1839م، مما شجع خصومه الانفصاليون أمثال ابن سالم والتيجاني، حتى أن هذا الأخير أرسل إلى المارشال فاليه يقترح عليه التعاون معه، ويتعهد بطاعته والدخول تحت نظره ويدفع إليه الزكاة والعشور وإبعاد الأمير من الصحراء . وعليه فان سلطته في الصحراء الوسطى كانت غير مؤكدة، فقد كان احمد بن سالم متمردا عنه في الاغواط ونواحيها وكان نفوذ التيجاني ما يزال قويا رغم احتلال عين ماضي [31].

ونظرا لأن الأمير كان منشغلا بالحرب مع الفرنسيين لم يتمكن من نصرة خليفته"عبد الباقي "بل نجده أسند الخلافة مرة أخرى إلى "الحاج العربي"الذي واصل صراعه مع خصومه خاصة أحمد بن سالم [32]. وقد تلقى الدعم ـ في البداية ـ من قبائل الأرباع محاولا السيطرة على قصر الحيران، لكنه هزم وتخلت عنه قبائل الأرباع التي انظمت إلى قوات بن سالم القادمة من الاغواط ، وانتصر ابن سالم، وألقى القبض على "الحاج العربي" ، ثم قام بإعدامه حتى يقضي على نفوذ الأمير بالمنطقة نهائيا [33].

وما يمكن قوله هو أن هناك عدة عوامل ساعدت على عدم استقرار سلطة الأمير في المنطقة:

ـ أولها أن خلفاء الأمير على منطقة الاغواط لا يتمتعون بصيت ونفوذ قوي ، مما جعل سلطته لا تنفذ ولا تحترم ، وذلك لأنهم لا يتمتعون بسلطة شخصية أو إدارية أو دينية تجلب إليهم طاعة الناس.

ـ وثانيها قرب الاغواط من منطقة نفوذ العدو خاصة بعد احتلال المدية سنة 1840م[34].

ـ قوة المعارضة التي تزعمها " أحمد بن سالم" بمؤازرة الطريقة التجانية، وشيخها محمد الصغير التجاني.

وهكذا مثلت سنوات 1839-1844 صراعا بين المقاومة ومعارضيها في نواحي تاجموت وعين ماضي والاغواط ، وكان ذلك الصراع قد مهد الطريق أمام دخول الجنرال ماري مونج إلى الاغواط واحتلالها.

2 ـ مواقف سكان الاغواط وأعيانها من الاحتلال الفرنسي للمنطقة:

بعد أن أصبح الجو خاليا"لأحمد بن سالم"، ومن أجل الحفاظ على نفوذه من جهة، وتفاديا لانتقام الأمير منه بدأ يعمل على استمالة السلطة الفرنسية [35]. التي بدأت حملتها الاستكشافية للأغواط تحت قيادة الجنرال " ماري مونج " قائد شعبة المدية العسكرية[36]، فكيف كان موقف السكان والأعيان؟

ـ موقف أحمد بن سالم:

تحرك الطابور العسكري الفرنسي القوي، الذي يتكون من 1500 جندي، بقيادة ماري مونج في مارس 1844، قاصدا الاغواط وعند وصول هذه القوة العسكرية إلى قصر زكار أسرع" أحمد بن سالم " بإرسال أخيه إلى القائد العسكري الفرنسي ليقدم له الولاء ، ويطلب منه أن يمنحه منصب خليفة على الأغواط وعلى قصورها الخمسة وعلى

كل الأرباع والحرازلية وبني ميزاب . وفي 21 ماي1844، وصلت هذه القوات إلى تاجموت أين استقبلها " أحمد بن سالم " مبرزا ولاءه للجنرال [37]، وأدركت السلطات الفرنسية قيمة هذا الشيخ حيث كان له تأثير ونفوذ كبيرين على الأهالي، لذلك عاملته معاملة حسنة قصد إخضاعه نهائيا لسلطتها ويصبح صديقا للفرنسيين.

وكان الجنرال ينتظر وصول التيجاني أيضا ولكنه أرسل أعيان عين ماضي وحصانا ورسالة خضوع، وأعلن انه ليس رجل دنيا، وليس من عاداته مقابلة الحكام. وأدرك القائد الفرنسي مكانة الشيخ التيجاني، وعامله معاملة خاصة حتى يكتسب وده ويصبح صديق فرنسا ويخضع تدريجيا لهيمنتها. لهذا فانه أرسل بعثة بقيادة "سانت ارنو" إلى عين ماضي فلقيت ما كانت تريده ، وفرضت ضريبة على أهلها قدرها 3720 فرنك[38]، وكان التجاني قد تردد في استقبال هذا القائد المسيحي، لكنه في الأخير استقبله وسهل له مهامه . وحتى توطد فرنسا علاقتها بالشيخ التجاني أرجعت له ما دفعه من الضرائب كعربون للمحبة والتحالف.

وصل الطابور في 23 ماي 1844، ليخيم بقصر الحيران وكان في صحبتهم " أحمد بن سالم". وبعد الانتهاء من هذه الرحلة قدم الجنرال " ماري مونج" تقريرا إلى السلطات العليا ، أشار فيه إلى تأييده وإقراره بتعيين"احمد ابن سالم" خليفة على المنطقة[39]، لأنه قادر على تمثيل النفوذ الفرنسي وبسطه على كامل الاغواط ، باعتباره شخصية مرموقة، فضلا عن كونه سيحارب خلفاء الأمير ويضرب المقاومة ويجمع الضرائب من المواطنين ويقدمها للعدو، في المنطقة الممتدة من أولاد سايح قرب تقرت شرقا إلى أولاد سيدي الشيخ غربا مرورا بوادي ميزاب والشعانبة[40].

ويعتبر هذا الجنرال، أن الاعتراف بتعيين بن سالم خليفة ، يمثل الضمان الكامل للنفوذ الفرنسي في الاغواط باعتباره شخصية مرموقة وعدو ا لعبد القادر ، وأقوى قادة الجنوب ، تسانده قوة عسكرية تقدر بألف وم ائتي جندي وخمسمائة فارس وقطعة مدفعية ، واقترح أن يحدد له مرتبا يقدر بثمانية عشر ألف فرنك، ومبلغ الفين وخمسمائة فرنك لكل آغة معين معه. [41] ولكن ذلك مجرد شراء مؤقت لذمته، إلى أن يجمع العدو أمره ويقضي على قائد المقاومة، ثم يعود إلى ابن سالم وأمثاله ممن كانوا يسمون بالزعامات المحلية ، فيقلم أظفارهم، ويحدد مجالهم وينزع منهم كل السلطات ما عدا البرنس رمز فرنسا، والجراية من المال، وعصا رمز التسلط وتأديب المواطنين[42].

ومن خلال هذه الإجراءات الفرنسية أصبح أحمد بن سالم السيد المطلق على المنطقة تحت حماية فرنسا وقوتها العسكرية، وبدأت فرنسا فعليا في تطبيق المشروع لكن الأوضاع الخارجية لم تسمح لها باستكماله وعطلته لعدة سنوات[43].

وقام خليفة الاغواط أحمد بن سالم، بتقديم تقرير مفصل عن انطلاق الثورة في الجنوب، فأسرعت السلطات الفرنسية، إلى تنظيم حملة عسكرية من المدية تحت قيادة الجنرال لادميرول في شهر ماي 1851م، ولما وصل إلى الجلفة استدعى كل قادة القبائل، ومنهم خليفة الاغواط، والآغا سي الشريف بالأحرش، لتدارس الموقف. وقد أبدى الجنرال ميله إلى ابن ناصر بن شهرة لتعيينه خليفة بالاغواط مكان احمد بن سالم، ولكن الحاكم العام رفض ذلك، وثبت ابن سالم في مكانه، اعترافا بجهوده وإخلاصه للفرنسيين. [44]

وخوفا من تحركات الثوار، أمر الحاكم العام للجزائر"راندون" يوم 07 فيفري 1852 الجنرال"لادميرول"، ليقوم بمراقبة المنطقة واثبات الحضور الفرنسي، فتحرك نحو الاغواط، لكونها أحد قلاع الثورة، وسلك نفس الطريق الذي مر عليه سلفه ماري مونج، حتى وصل قصر الحيران، فقام الجنرال"لادميرول" في يوم 6 أفريل1852، بإصدار عدد من القرارات، والتنظيمات التي تخص القبائل المتواجدة جنوب المدية[45]، ومنها:

ـ عزل الخليفة أحمد بن سالم بعد أن اتهمه بالتقاعس وعدم الكفاءة ، بل اعتبره عائقا حقيقيا أمام التنظيم الحسن للمنطقة.

ـ تعيين " الشريف بالأحرش " مكانه في قيادة المنطقة جنوب المدية.

ـ تنصيب"الناصر بن سالم " الابن الأكبر للخليفة السابق ـ ابن سالم ـ آغا على الأغواط وقصورها[46].

ـ إبقاء عين ماضي تحت نفوذ الشيخ محمد الصغير التجاني.

وبعد هذا الجهد، توفي أحمد بن سالم في بوغار، بعد معاناته من مرض عضال، وأقيمت جنازته بالاغواط، وحضرها الشيخ التجاني، الذي نصح أبناءه، وسكان المدينة، بخدمة فرنسا أحسن مما خدمها الخليفة الراحل، غير أن نصيحته لم تلق الاستجابة[47]، وسارت الأمور نحو الثورة التي ولدت أحداثا جديدة.

لقد عين الجنرال يوسف على الشعبة العسكرية بالمدية، خلفا الجنرال"لادميرول"، والذي أكثر من الإلحاح على الوالي العام بتجهيز قوات لاحتلال الاغواط، لأنها في وضع متأزم، ومستباحة من الثوار، ولاسيما محمد بن عبد الله وابن ناصر بن شهرة، وبعد تردد وتمهل [48]، وافق على تنظيم خمسة طوابير، تشترك فيها فرق عسكرية من إنحاء متفرقة من البلاد من الشرق والغرب والوسط[49]، وأعطيت القيادة للجنرال بيليسييه، الذي تقدم نحو الاغواط ، وفي يوم 04 ديسمبر 1852، تمكن من احتلالها، بعد مجزرة رهيبة، ولم تتمكن المقاومة من إنقاذها.[50]

ـ موقف ابن ناصر بن شهرة:

ينتمي الثائر ابن ناصر بن شهرة إلى مدرسة الأمير عبد القادر الحربية ، وتلقى تكوينه العسكري على رجالها، وكان من الفرسان الشجعان، يتقدم الصفوف الأولى أثناء المعارك، متميزا ببرنسه الأحمر، وله تأثير كبير على الثوار في جمع الكلمة، والانضباط، ونشر العاطفة الدينية والوطنية، ولم تغره العروض ولا المساومات [51] .

ومنذ عام 1851م لم يتوقف هو وأتباعه من المعامرة والحجاج والحرازلية عن الحرب ضد الاستعمار أو القبائل المتعاونة معه، وساهم بشكل كبير في الكثير من الثورات والانتفاضات، وجاب كل الصحراء من الشرق إلى الغرب قصد استنفار الهمم والحث على الجهاد فشكل بذلك أول قيادة جماعية للمقاومة ، وكان بحق الرابطة الحقيقية وهمزة الوصل بين كل الثورات التي اشتعل فتيلها ابتداء من خمسينيات القرن 19 وإلى غاية 2 جوان 1875م .

بدأ المجاهد البطل ابن ناصر بن شهرة جهاده يوم 5 سبتمبر 1851م [52] عندما فر من مقر إقامته الجبرية ببوغار ثم عاد إلى الأغواط ، واستولى على بلدة قصر الحيران وحصنها ، فاتصل به السكان من كل جهة ، خاصة أعيان المدينة للتعاون معهم ، لأنهم يئسوا من التفاهم والتعايش مع الفرنسيين ، وعزموا على الثورة عليهم [53] . أما عن سبب إعلان ابن ناصر بن شهرة الثورة ، فحسب لويس رين انه لما رفض بن ناصر بن شهرة أن يطيع صهره الخليفة بن سالم زعيم الصف الشرقي ، ورفض الفرنسيون أن يعينوه آغا على الأرباع سنة 1846م خلفا لأبيه ، عصى وتمرد [54]، ولكن الأسباب الدافعة له، هو ظلم الفرنسيين واعتداءاتهم، والبطولة التي اكتسبها في صف المقاومة مبكرا.

وفي عام 1852م ظهر ثائر جديد بالصحراء وهو الشريف محمد بن عبد الله ، فعند عودته من البقاع المقدسة شرع مباشرة في الاستعداد للكفاح ضد المحتل الفرنسي، في كل من الاغواط وتقرت وورقلة، وكان موقف ابن ناصر بن شهرة أن انضم إليه وعزز موقفه ، لأنه ينتمي إلى نفس المدرسة، وقاتل في صفوف الأمير، وتربى على الشيخ

السنوسي بمكة[55]، وراسل الشريف بن الاحرش في الجلفة طالبا منه الوقوف إلى جانبه كما انضم إليه أولاد يعقوب بجبل عمور ، ومع مطلع سنة 1852م هاجم الاغواط إلا أن المدافعين عنها أوقفوه، كما هرب احمد ابن سالم من الاغواط إلى المدية محتميا بالسلطة الفرنسية.[56]

ومن أبرز المعارك التي قادها ابن ناصر بن شهرة رفقة شريف ورقلة ما بين ماي وديسمبر 1852:

ـ عملية الكومندان: كما يسميها الفرنسيون، والتي وقعت بتاريخ 22 ماي 1852م جنوب وادي جدي ـ جنوب بسكرة ـ عندما زحف الاثنان من ورقلة، فسيطرا على نقوسة ودخلا تماسين دون مقاومة، فانضم لهما عدد من ثوار واد ريغ والشعانبة وسعيد عتبة، وقد أصبح الاثنان يهددان المركز الفرنسي ببسكرة الذي كان بقيادة كولينو الذي قام بتوجيه قواته لمهاجمتهما، إلا أنه فشل في ذلك بفضل حنكة ابن ناصر بن شهرة ومحمد بن عبد الله[57].

ـ السيطرة على قصر الحيران: دخلها ابن ناصر بن شهرة يوم31 جويلية 1852، واتخذها قاعدة للثوار، ويومئذ وفد عليه أعيان الأغواط، ورجال الصحراء، وأصحاب السمعة والجاه فيها، مثل يحيى بن عم أحد شيوخ الاغواط، والشريف ابن الاحرش الذي كان خليفة الأمير، ثم صار باش آغا أولاد نايل، [58]. وفي 09 سبتمبر 1852م تحالف معه بعض سكان أولاد نايل بزعامة تلي بن لكحل ، وفي 15 سبتمبر تحالف يحيى بن معمر مع المقاومة، والتقى بقصر الحيران مع المجموعة، حاملا دعمه ومساعدته لدخول الأغواط . كما انظم إليه يحيى بن سالم شقيق أحمد بن سالم، ثم التحق به شريف ورقلة محمد بن عبد الله ، واتجهوا جميعا من قصر الحيران إلى مدينة القرارة للتسليح والتموين، وهذا دفع الجنرال يوسف المملوك إلى بناء مركز قيادة جديدة في مدينة الجلفة[59].

ـ معركة الاغواط: كان الجيش الفرنسي بقيادة بيليسييه ويوسف المملوك ، وتقدم نحو المدينة في شهر أكتوبر 1852م، واشتبكت طلائع الجيش مع الشريف محمد بن عبد الله على مشارف المدينة[60]، وكان التفوق للمقاومة، اذ استنفر ابن شهرة الثوار في المناطق الشمالية، وأرسل في جلب المؤونة، قبل القيام بأي عمل ضد الاستعمار ، وكانت تلك الإستراتيجية العسكرية التي اتسم بها تفكير ابن ناصر بن شهرة، وبعد وصول ما كان منتظرا ، وبتاريخ 29 أكتوبر 1852م، قام السكان بمحاصرة جنود الحامية الفرنسية بالمدينة وعلى رأسهم الملازم بن أحميدة فجردتهم من أسلحتهم [61]. ورغم تجميع القوات الفرنسية، إلا أنها اصطدمت ب قوات ا بن ناصر بن شهرة يوم 18 نوفمبر1852، والتي زحفت بقوة على موقع العدو، فجرت أحداث معركة من أكبر المعارك التي شهدتها المنطقة يوم 21 نوفمبر، تكبد فيها العدو الفرنسي خسائر كبيرة . وهو الأمر الذي جعل الجنرال يوسف ينسحب إلى قصر العسافية، ودخل الثوار إلى مدينة الأغواط تحت تكبيرات وتهليل السكان ، وبدأوا على الفور في عمليات التحصين للمواجهة الحاسمة مع العدو[62].

ولكن الآلة العسكرية الفرنسية كانت أقوى، وإدارة المعركة كانت أحكم، والتي حسمت الأمر يوم 04 ديسمبر 1852، وأجبرت ابن شهرة والثوار على الانسحاب، واستولى الفرنسيون نهائيا على الاغواط،[63] ووضعوا بها حامية عسكرية دائمة واتخذوها قاعة حربية لتوسعهم نحو الجنوب.[64]

ولما تمكن الجيش الفرنسي من احتلال الأغواط ، استمر ابن شهرة في حرب العدو في الصحراء الجزائرية إلى سنة 1875، واشترك مع كل أبطال المقاومة، ولاسيما محمد بن عبد الله، وأولاد سيدي الشيخ، وبوشوشة، ومحي الدين بن عبد القادر، وهو دليل على روح المقاومة التي بقيت تتأجج في نفسه، ووجدت وقودها في المعارك التي هي أوسمة تجلل تاريخه، وتبرزه زعيما متميزا في منطقة الاغواط، وابرز رموزها الثورية، ومفاخرها التاريخية.

ـ ثانيا مفاهيم ومناهج الدراسة السيكولوجية:

تقتضي دراسة النفس البشرية، أن تكون دراسة ميدانية، يحتك فيها الباحث بمجتمع البحث، ويلمس الظواهر الاجتماعية عن قرب، ويطبق عليها النظريات، ويستعين بالمناهج التجريبية، ودراسة الحالة، ورصد تلك المظاهر، والتعمق في أسبابها، وإماطة الأقنعة التي يتستر تحتها الأشخاص، بل يتدثرون بسلوكيات يسودها الغموض.

وتكمن الصعوبة في هذا الموضوع، عندما تشمل الدراسة عينات من الأعيان، هم من ذوي الحظوة الاجتماعية، والمكانة السياسية، ولكن حياتهم مضت مع الأحداث التاريخية، وضمتهم اللحود، وبقيت أفكارهم ومواقفهم راسخة، وانجازاتهم شاهدة على سلوكهم البطولي، الذي يعرضه المؤرخ، من خلال شكله الخارجي، ويصعب عليه التوغل في الذات، للوقوف عند العوامل النفسية، والدوافع الخفية، التي رسمت ذلك السلوك، ولا شك أن الأحوال النفسية، هي الباعث الحقيقي لهم في اتخاذ المواقف، وتجسيد العلاقات، تحت وطأة التحديات الخارجية ولاسيما الصراع البشري.

ويمدنا علم النفس بالقواعد الخاصة بالتحليل، لأن(مهمة علم النفس هي دراسة السلوك الظاهر ـ ليس كافة ضروبه ـ بالطبع، إذ أن التاريخ، والسوسيولوجيا، والفزيولوجيا، وفروعا معرفية أخرى، تقوم كذلك بدراسة السلوك بطرق أخرى). [65]

ومما سبق، تطرح إشكالية التعمق في مواقف الزعامات، وأحوالهم النفسية المعبرة، وهي مقاربة تجمع بين المادة التاريخية، والنظرية السيكولوجية، التي يستنجد بها المؤرخ، لعله يجلي الأحداث، وينفث في روحها نفسا جديدا، يخدم الحقيقة التاريخية.

وإذا كانت الدراسات النفسية الميدانية تقوم على التجريب والملاحظة، فان الدراسات النفسية التاريخية، تقوم على تحليل الشخصية من خلال المادة التاريخية المتوفرة، والقراءة المنقبة على حيثيات الأحداث، وعرضها على المنهج النقدي، ومقارنتها بأمثالها، واستقصاء ما يتضح من نتائج، تساعد على تفسير الحدث أو الموقف المتخذ من الزعيم منذ زمن وقوع الحدث التاريخي. ويمكننا استعراض المناهج النفسية المساعدة على البحث، وضوابط تحليل المواقف من خلال السلوك العملي.

1 ـ مناهج وطرق التحليل النفسي لشخصية الزعيم:

تتحدد المناهج والطرق الخاصة بتحليل شخصية الزعيم (البطل) من عدة زوايا، في حياته:

ـ التحليل النفسي وفق تاريخه الشخصي: ويكون بدراسة تاريخه في عهد الطفولة، ورد أفعاله ونشاطاته عبر الزمن، وكيف كان يتصرف في الماضي؟

ـ التحليل النفسي بالاعتماد على اللسانيات النفسية: بفحص ما يصدر عنه من بيانات شفهية أو مكتوبة، ويتضمن تحليل اللغة، وهناك مناهج متعددة لدراسة خطاباته.

ـ التحليل النفسي للشخصية وفق صفاتها: وتسمى بنظرية "الرجل العظيم" التي تعتبر أن الشخصية القوية للقائد هي المحرك لسياسته. [66] وظهرت فكرة البطولة، أو نظرية "الرجل العظيم" منذ عهد الاغريق والرومان، واستمرت حتى القرن التاسع عشر، بأن البطل هو الصانع الوحيد للوقائع، والتاريخ هو نتاج أبطال. بينما كان ذلك في التاريخ الإسلامي، مجرد ظاهرة اجتماعية لروح العقيدة التي سادت المجتمع الإسلامي. [67]

2 ـ ضوابط تحليل مواقف الشخصيات من خلال سلوكها العملي:

يعتمد المؤرخ على ضوابط ومحددات علمية، يدرس بها مواقف الشخصيات التاريخية، من خلال تحليل أقوالها وكتاباتها، أو الوقوف عند سيرتها الذاتية، وانجازاتها العملية، ويستقي من سلوكها ملامحها الشخصية، التي تساعده على معرفة العوامل التي دفعت تلك الزعامات إلى اتخاذ تلك المواقف المسجلة في تاريخها.

أ ـ العوامل المساعدة على تحليل سلوك الزعماء: عرفت الثقافة الإسلامية، علوما كثيرة، ومنها علم جليل الفائدة، وضع أسسه علماء أفذاذ، وصنفوا فيه منذ القرن الثالث الهجري، وأبرزهم المحاسبي، والطوسي، والقشيري، أبي حامد الغزالي وغيرهم. وهو علم ينفذ إلى أعماق النفس، فيتقصى أسرارها، ويعالج عللها، من منطلق روحي، أُطْلِقَ عليه في الثقافة الإسلامية "علم السلوك" أو "علم التزكية" وهو يتقاطع مع التصوف، ويستوجب منا تحليل شخصية الزعامات في حياة المسلمين من خلاله، ويمكن حصره في ثلاث عوامل رئيسة، مؤثرة على الزعيم في اتخاذ مواقفه:

ـ الرغبة في الزعامة: والتي يطلق عليها في الأدبيات الإسلامية "حب الرياسة" أو حب السلطان، أو الشهوة الخفية، وسئل أبو داود السجستاني ما الشهوة الخفية قال: (حب الرياسة)، ومبعثها قد يكون رغبة في الخير، وربما تفسد النوايا، ويكون الدافع غرور وعجب، لا يمنع الزعيم من التصادم، والبغي كما أورده الفضيل بن عياض فقال: (ما أحد أحب الرياسة إلا حسد وبغى). وكل شخص في نفسه شيء منها، قد يخفى عليه، فما بالك بأهل الفضل والصلاح، قلما يتخلصون منها، كما قال الصوفية: (حب الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين).

ـ طلب المكاسب: إن طبيعة الإنسان تدفعه للكسب، ويتم بالعمل والاجتهاد، أو ببلوغ المناصب العالية، والمراتب السامية، التي يحقق بها كل ما يريد ويبتغي، ويستغل من اجلها شتى الشبل والأساليب، والمعبر عنها ـ في ثقافتنا الشرعية ـ بمعنى "الحرص على الدنيا "، فإذا تمكن ذلك في القلب، يسعى صاحبه لتحقيقه دون قيد يمنعه، أو ضمير يردعه، ولو بلغ أرذل العمر، كما قال النبي ﷺ : (يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان: الحرص والأمل) رواه البخاري ومسلم واحمد والنسائي. وقد يعبر عنه بتحقيق المصلحة الشخصية.

بينما تضطر المصلحة العامة، أن يكون طالب السلطة، مبتغاه المحافظة على مكاسب المجتمع، وصيانته، وزهده في الدنيا، النابعة من خلو النفس من الأغراض الزائفة، مثلما كان مطلب نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام: (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) يوسف، الآية 55.

ـ المتغير الخارجي: وقد يكون طلب السلطة، محافظة على الإرث السلطوي، الذي يعتبر امتدادا شرعيا لحكم الآباء والأجداد، أو بدافع من الأسرة، التي تولي أحد أفرادها وتؤازره لتحقيق طموحها، وتبذل من أجله النفس والنفيس، أو بسبب روحي لدى الطرق الصوفية التي ترى نفسها الأولى بالزعامة، وتعمل من اجله، وفي بعض الأحيان يكون دور الجماعة فاعلا في تهيئة المطالب، والمضي قدما للامساك بزمام الأمور، وتولي المسؤولية ولو ـ اقتضى الحال ـ استعمال العنف الدموي.

ب ـ أنواع الشخصيات بين علم السلوك وعلم النفس:

عندما نقوم بتحليل المواقف التي حملتها سير الزعماء في مختلف الصفوف والقبائل، سواء كانوا في صف المقاومة الوطنية، أو الذين فضلوا الانحياز إلى المستعمر وتفانوا في خدمته والإخلاص إليه، فان تحديد شخصياتهم، تظهر بعد تجميع المعطيات، ومحاولة الغوص في أعماق النفس البشرية، حسب العلوم التالية:

ـ **علم السلوك:** وهو يدرس الروح، ويختبر خلجات النفوس، ومدى ارتباطها بالعقيدة والدين، ويمكن الإشارة إلى فئتين من الناس في هذا المجال:

ـ **النفس الخيرة:** التي ترنو دوما لفعل الخير، وعبر عنها علماء التزكية والسلوك، " بالنفس المطمئنة" التي تحب تقديم النفع للناس، والإيثار على النفس.

ـ **النفس الشريرة:** وهي أقرب إلى إيقاع الضرر بالناس، وعبر عنها علماء التزكية والسلوك، " بالنفس الأمارة بالسوء" ، ويكون صاحبها أنانيا، سيئ الطبع.

أما علم النفس، فيتوغل في الذات، ويتتبع دواخلها، وسلوكها، ويمكن عرض بعض أوجه الشخصية، وأنواعها المختلفة:

ـ **الايجابية:** وهي هادئة ، ومتحمسة للعمل، وتتخذ القرارات باستعمال العقل، والإصغاء إلى الآخرين.

ـ **الانبساطية:** طيبة القلب، وتحسن معاملة الناس، وتحظى بمحبتهم، وتتمتع بالسرعة في اتخاذ القرار.

ـ **العطوفة:** وهي شخصية ملء قلبها بالمحبة، ورقة القلب، والرأفة بالناس عند معاملتهم، ويتولد عنها أخلاق التسامح والعفو، والبعد عن كل مظهر للعدوان أو الكره.

ـ **الحدية:** وتتصف بالتفكير الواحد، وتطرف الرأي، وتقلب المزاج، وصدور القرارات المفاجئة، وعدم الاستقرار في المشاعر والانفعالات.

ـ **النرجسية:** وتتصف بحب الذات، والشعور بالعظمة، واستغلال الأفراد من حوله لتحقيق مصالحه.

ـ **القاسية:** ولها فظاظة في المعاملة، وتفتقر للرحمة والعطف، وتجنح إلى الخضوع والذل، وتفضل الثأر والانتقام، ولا تعرف للعفو والتسامح سبيلا.

ـ **الشخصية المستسلمة:** وهي المذعنة للآخرين، والمسايرة لمواقفهم، مع الضعف في إبداء الآراء بحرية، والحرص على مشاعر الآخرين.

ـ **الساذجة:** ثقتها كبيرة في الناس، ومع الغفلة عما يدور في محيطها الاجتماعي، والتبعية للآخرين، والمبالغة في الصراحة حتى في الأمور الخاصة والدقيقة.

كل تلك القواعد، والأسس، هي المناهج القابلة للتطبيق والإسقاط على الشخصيات التاريخية، ومحاولة الغوص في نفسيتها، والتحقيق في مواقفها، وتحديد طبيعة الشخصية الخاضعة للدراسة، ومن خلالها نكشف عن معلومات خفية، تفيد البحث التاريخي، وتثري مادته، وفق المنهج العلمي السليم.

ـ ثالثا: الدراسة التاريخية السيكولوجية:

كما سبق الذكر، نحاول تطبيق المنهج الذي عرضناه في العنصر السابق، بالجمع بين الدراسة التاريخية للزعيم التي تلخص سيرته الشخصية ـ بما يخدم التحليل النفسي ـ والاستعانة بالمعارف النفسية، المقتبسة من علم النفس، وعلم التزكية، للكشف عن محددات الشخصية، وإبراز محاسنها أو عيوبها، والتي تلامس المواقف السياسية المتخذة:

ـ تحليل مواقف الزعامات المحلية في منطقة الاغواط:

تم استعراض الدراسة التاريخية، في العنصر الأول من هذه الدراسة، بالتعرض للسلطة الحاكمة في عهد الأمير، وبعد التغلغل الفرنسي في منطقة الاغواط، وأهم الزعامات التي تولت المناصب، وتبوأت مكانة في القيادة والثورة، وأردنا حصرها في أربعة نماذج مختارة، لأهميتها، ودورها الفعال، وبروزها الجلي:

1 . تحليل شخصية ومواقف الحاج العربي:

هو الزعيم الأول في قائمة خلفاء الأمير عبد القادر في منطقة الاغواط، وتولى في ظروف صعبة، وواقع معقد، خلال عهدتين محدودتين زمنيا:

أ ـ مجمل سيرته الشخصية: ينتسب الحاج العربي إلى عائلة عريقة، ذات شرف، فجده هو الولي الصالح سيدي الحاج عيسى، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمدينة الأغواط، وجامع شمل سكانها، عندما قدم إليها من تلمسان عام 1662، وجد التنازع فاشيا فيها بين فئتين، أحداهما تدعى الأحلاف، والثانية بني سرغين، فوحد بينهما في عام 1698، واستقر حال البلاد، وتوفي الحاج عيسى عام 1737م. ويحظى الحاج عيسى بمكانة روحية في المجتمع، وتذهب بعض الروايات أنه عاش حوالي قرن من الزمان، وتنبأ بالاحتلال لفساد أحوال الجزائريين.[68]

أما حفيده "الحاج العربي" ، فعندما بدأ الأمير سياسته في الصحراء سنة 1837، اتصل بأعيان المنطقة للدخول تحت طاعته، فوجدها تخضع سياسيا لتأثير عائلة "أحمد بن سالم"، وروحيا لعائلة "الحاج عيسى" والأمير ميال للأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم، فربط العلاقة مع الحاج العربي، وعينه خليفة على كل النواحي، بما في ذلك الاغواط وعين ماضي وتجموت، وقد أيد الشيخ محمد التجاني ذلك الاختيار في الظاهر على الأقل.

كما أن الخلاف كان شديدا بين أحمد بن سالم والحاج العربي خليفة أولاد سرغين، حول حيازة بعض الملكيات، وهذا أدى إلى تغلب ابن سالم، وطرد الحاج العربي خارج البلدة، فأتى تعيين الأمير له بمثابة رد الاعتبار لهذه الشخصية الروحية، التي تتمتع برصيدها التاريخي.

واستطاع الحاج العربي كسب ود سكان الاغواط، وحصل على ولاء التجاني، ودعم ونصرة الأحلاف، مما جعل موقف أحمد بن سالم محرجا، وفضل الانسحاب عند صهره ابن ناصر بن شهرة قائد قبيلة الأرباع، ولما أحس بالخطر، توجه إلى بني يزقن.

ولكن الأداء السياسي للحاج العربي كان ضعيفا، وعجز على إقناع ابن سالم والتجاني في الدخول تحت طاعة الأمير، فكان مبررا لعزله سنة 1839.

ولكن الامير أعاده مرة أخرى إلى السلطة، لأن الخلاف كان محتدا ضد الخليفة الجديد " قدور بن عبد الباقي"، ورغم ذلك لم يتمكن الحاج العربي من الوقوف في وجه ابن سالم، الذي تصدى له بقوة، كما أن قبيلة الأرباع تخلت عن مساندته، والتجاني تحالف ضده مع ابن سالم، فواجه مصيرا سيئا، عندما قبض عليه ابن سالم، وأعدمه سنة 1843[69]، حتى يقضي على نفوذ الأمير في الاغواط.

ب ـ تحليل سلوكه ومواقفه: كان السلوك الشخصي للحاج العربي، مستندا إلى المرجعية الروحية والتاريخية التي أسسها جده، ومنها رسم مواقفه، وأبدى تطلعا نحو القيادة، وسارع إليها عندما عرضت عليه، كرد فعل قوي ضد سياسة ابن سالم، الذي خاصمه بفجور، وطرده من بلاده، وتشفى فيه بين قومه، وشرده عن بيته وذويه، ونزع أملاكه، فكان عرض الأمير له مغريا، لأنه مكنه من السلطة التي لم تكن حلما يراوده، فصارت حقيقة مؤكدة.

ورغم الفرصة المتاحة للحاج العربي، والانتماء لسلطة الأمير عبد القادر، واستمداده الرصيد السياسي والعسكري، فانه عجز عن استغلال تلك الظروف، ليس عن فقدان الإمكانيات المادية فحسب، وإنما بسبب ضعف شخصيته، وفشله الذريع في الشؤون السياسية، وتعامله المحدود مع القبائل، وافتقاره لمنطق الحجة والإقناع، مما جعل قبيلة الأرباع تنفض من حوله، ومحمد التجاني يتخلف عن دعمه، وأحمد بن سالم يناصبه العداء، ويقتله سياسيا، ثم يجهز عليه ويودي بحياته، ويضع حدا لسلطة الأمير من خلاله. ويظهر من خلال الغوص في شخصيته، تمسكه الكبير بحب السلطان، وتولي الزعامة، فعندما عرض عليه منصب خليفة على الاغواط للمرة الثانية قبل دون تردد، رغم معرفته بواقع الحال، وبقاء خصومه، وظل السلطة الفرنسية الذي بدأ يظهر للعيان. وكل هذا لشخصيته الضعيفة، التي يشوبها نوع من السذاجة السياسية، وغياب الحزم، وعدم القدرة على إدارة الأزمات، والإخفاق في الخروج منها بأقل التكاليف.

2 ـ تحليل شخصية ومواقف أحمد بن سالم:

هو الزعيم السياسي المحنك، الذي جمع بين القدرة على إدارة الأمور، وعلى نسج العلاقات، والانتماء إلى الطريقة التجانية الفاعلة في الاغواط، والتي مهدت له سبيل التسلط والزعامة:

أ ـ مجمل سيرته الشخصية: تعود الجذور الأولى لشخصية " أحمد بن سالم " إلى العهد العثماني، عندما عين باي وهران "محمد الكبير" سنة 1785، قائدين على القبيلتين البارزتين في مدينة الاغواط، فنصب أحمد بن لخضر قائدا على (أولاد سرغين) والسائح بن زعنون قائدا على (الأحلاف). ولكن الخلاف وقع بين البايلك والشيخ أحمد التجاني، الذي وجد مناصرة من القبائل السالفة، مما دفع الباي عثمان في وهران ـ الذي خلف أباه ـ إلى الاتجاه نحو الاغواط للانتقام منهم، وخاصة الأحلاف الذين فضلوا الفرار من الاغواط وأسسوا مع أولاد رحمان قصر الحيران، ثم تأججت الخصومات التي فقد بسببها "الأحلاف" زعيمهم السائح بن زعنون وأخوه معمر بن زعنون، والسائح لم ينجب ولداً، بينما خلف أخوه معمر طفلين صغيرين، أكبرهما هو "أحمد بن سالم" الذي استطاع أن يكسب محبة الجميع، ويحكم الاغواط بمفرده، وحتى يتمكن أكثر، تزوج ابنة قائد أولاد سرغين أحمد بن لخضر. وتولى أحمد بن سالم السلطة في الاغواط سنة 1828، وعرفت المنطقة يومها نوعا من الاستقرار والهدوء، والازدهار في الحركة التجارية. (70)

ولما عين الأمير، الحاج العربي خليفة له على الاغواط، لم يرض "أحمد بن سالم " بالأمر الواقع، وبقي متحفزا، يتحين كل فرصة من أجل الاستيلاء على السلطة."وكان أحمد ابن سالم حاكم الاغواط ومقدم التجانية فيها، ويأتمر بكل قرار يتخذه شيخه محمد الصغير التجاني". (71) ولهذا لما حاصر الأمير عين ماضي، كان احمد بن سالم في صف التجاني، فاستعمل معه الأمير أسلوب الإغراء، وطلب منه أن يسحب قواته ويعيد إليه حكم الاغواط، وهذا التعيين المفاجئ، أوقع ابن سالم في حرج كبير، فبريق السلطة يأخذ بالألباب، والولاء للتجاني، فيه وفاء لا يمكن التنكر له، وهذا جعل الأمير يعزله، لأن موقفه من الحصار كان مترددا، وسيرته لم تكن حسنة مع أهل الاغواط. وعين مكانه "قدور بن عبد الباقي البصري" الذي كلفه الأمير بالانتقام من أعيان الاغواط، وشرع في التنفيذ، ولكنه اخفق، لأن الثورة العارمة من سكان المدينة، واجهته بقوة، وكانت تتلقى الدعم السياسي والروحي من ابن سالم والتجاني.

ويومها ارجع الأمير "الحاج العربي" إلى حكم الأغواط، ولكنه عجز عن التصدي لخصومه، والقي عليه القبض وأعدم من قبل عدوه التقليدي "أحمد بن سالم" حتى يضع حدا لنفوذ الأمير في الاغواط ونواحيها.

وبمقتل الحاج العربي، خلا الجو لابن سالم، الذي صار متمتعا بالسلطة على الاغواط بدون منازع، ولكنه ـ وخوفا من انتقام الأمير ـ فكر في سلطة تحميه منه، فاتصل بالفرنسيين، وقدم لهم فروض الطاعة والولاء، في حدود عام 1844م، ومهد السبيل لبعثاتهم الاستكشافية، وقواتهم العسكرية، "وبنصيحة من شيخه محمد الصغير التجاني" [72] ، طلب منهم، أن يثبتوه خليفة على الاغواط وقصورها الخمسة؛ ولما لمس القائد "ماري مونج" الولاء التام من أحمد بن سالم، عينه خليفة على المنطقة كما رغب، وأعطيت له جميع الصلاحيات، تحت المظلة الفرنسية، وتسانده قوة عسكرية فرنسية، لتنفيذ مشروع فرنسا في الجنوب، ولكن ذلك الاحتضان، كان بشكل مؤقت، لأن الاستعمار يصادق ـ تلك الزعامات المأجورة ـ بحذر بعيد المدى.

لقد وافقوا على تعيينه خليفة، لمكانته المرموقة، وقدرته على تحقيق استتباب الأمن في الاغواط، لأنه يعرف فيها كل صغيرة وكبيرة، ويكفي فرنسا مؤونة الحرب ضد خلفاء الأمير، ويجمع لهم الضرائب بيسر. ولكن الحال تبدل، والمواقف الفرنسية تغيرت نحوه، فاتهم "أحمد بن سالم" بالتقاعس، ونقص الكفاءة، فعزل في أفريل1852، ونصب ابنه الأكبر "الناصر بن سالم، آغا على الاغواط وقصورها.

وكانت نهاية أحمد بن سالم أن يموت شريدا خارج مدينته التي كان زعيمها الأوحد، في نفس سنة عزله في بوغار، بعد معاناته من مرض عضال، ودفن بالاغواط، وحضرها الشيخ التجاني، الذي نصح أبناءه، وسكان المدينة، بخدمة فرنسا أحسن مما خدمها الخليفة الراحل، غير أن نصيحته لم تلق الاستجابة ، ولم يمنعهم ذلك من تعيين ابنه الثاني الشيخ علي آغة على الاغواط سنة 1853، وكانت له مواقف مشرفة للمدينة وأهلها، وعند الاحتلال.

ب ـ تحليل سلوكه ومواقفه: دفعت الأحداث المتعاقبة، والتحولات التاريخية، "أحمد بن سالم" إلى قمة القيادة، والتربع على عرش السيادة، وكان له قسط كبير من المؤهلات، التي نلمسها في نفسيته القوية، وشخصيته الكاريزمية، وشجاعته وإقدامه، وظهر ذلك من الوهلة الأولى في حكمه منطقة الاغواط؛ وظهر أن التقدير الذي قدره الأمير عبد القادر في اختيار خليفته "الحاج العربي" ، كان اجتهادا سياسيا ناقصا ، وإعراضه عن تثبيت "أحمد بن سالم" الذي يتمتع برصيد قديم من الحكم، والحزم، وترك تعيين غيره أثرا في نفسه، ورسم خط مسيرته المستقبلية، واتخذ مواقفه فيها، من خلال ردود الفعل، التي كانت محبوسة في نفسه المتحفزة للكيد أو الانتقام.

وكان ابن سالم مهموما بحب السلطة، ويسعى دوما من أجل بلوغها، ويركب في سبيلها كل صعب، ولا يهمه سوى تحقيق مصلحته، من أي طرف وردت. فلما عرض عليه الأمير السلطة قبل، ولما نزعت منه غضب واضمر العداوة للأمير، وبحث عن مخرج سهل، دون التفات إلى القيم والمبادئ، التي محاها من قاموسه الروحي، وحينئذ ارتمى في أحضان فرنسا، وتزعم المنطقة من أجلها، وقتل خصمه الحاج العربي، حتى يزيل كل عقبة تقف في طريق عظمته وتسلطه. وكانت مواقفه من الفرنسيين، الولاء التام ما داموا يحققون له مآربه. ولم يغب ذلك على شيخه التجاني، الذي بارك خط سيره، ودفعه نحو الزعامة من أبوابها الواسعة.

ولا يستغرب الباحث تلك المواقف، لأن شخصية "أبن سالم" شخصية حدية، ذات صفات نرجسية، ولها طبيعتها القاسية التي تبلورت في تلك المواقف السيئة، لأنه يعشق السلطان إلى حد كبير، ويطلب المكاسب المالية من أي جهة كانت، ويعادي الأمير وخلفائه لأنهم من خصومه القادرية، ويزوج ابنته من ابن شهرة، وهو قادري الطريقة،

لأنه زعيم، يحقق لها المكاسب المادية، لكن تعارض المصالح، وتغير الأهداف لدى ابن شهرة، جعله يغير من رأيه فيه، ويطلق له زوجته، ويخاصمه، لأنه يحارب أصدقاءه من الفرنسيين. وأدى به حقده الدفين إلى الانتقام من منافسه على الزعامة، "الحاج العربي" ولم يشف غليله إلا بقتله.

3 . تحليل شخصية ومواقف محمد الصغير التجاني:

هو الزعيم الروحي الذي قاد طريقة عريقة، لها مكانتها في المنطقة، وتأسست في رحابها، وصارت لها الشرعية التاريخية:

أ ـ مجمل سيرته الشخصية: كانت علاقة التجانيين بالسلطة الحاكمة في الجزائر، علاقة سيئة، عندما وقع الخلاف بين العثمانيين والشيخ احمد التجاني، واقتحموا عين ماضي عدة مرات، وآخرها حملة عثمان باي سنة 1798، وأفضى الصراع إلى انسحاب الشيخ أحمد التجاني إلى فاس والإقامة بها نهائيا، [73] وفيها أنجب أبناءه، ومنهم محمد الكبير الذي رجع للجزائر، ودخل في صراع جديد مع نفس السلطة في بايلك الغرب، وقاتل أهل معسكر، ومعه حشم غريس، ولكنهم تخلوا عنه وتركوه لمصيره، فقتل مع أصحابه من أعراب زكور من أهل أبي سمغون ونواحيها، [74] وكان القتل من قبل باي وهران وجيشه في 1242هـ/1826م[75].

أما الابن الثاني للشيخ أحمد التجاني، وهو محمد الحبيب، والذي عرف بالصغير، ولد بفاس سنة 1217 هـ/1802م ، وحفظ القرآن الكريم وأخذ مجموعة من العلوم والمعارف قبل وفاة والده سنة 1230هـ/ 1815م، فكان عمره يومها حوالي ثلاث عشرة سنة، فرجع به الحاج علي التماسيني، مع أخيه محمد الكبير، ولكن هذا الأخير قتل ولم يعقب ولدا، فآلت الزعامة إلى محمد الصغير، والذي صار زعيما روحيا في الجنوب والغرب الجزائري. ولكنه كان ميالا إلى الهدوء عكس أخيه، وتحالف مع زعيم الاغواط أحمد بن سالم.

ولما بدأ الأمير عبد القادر المقاومة، واتصل بالتجاني، قدم له الإعانات، مثلما ذكرت بعض الوثائق المنسوبة للتجانية[76] ، ولم يلبث الخلاف أن دب بين الطرفين بعد معاهدة تافنة 30 ماي 1937م، فرفض التجاني التعاون مع الأمير، وكان لخليفة الأمير الحاج العربي دور بسبب الحزازات القديمة، واستغلها في نقل الأخبار إلى الأمير، فتعمق الخلاف، كذلك فعل الجاسوس ليون روش [77]، وتوجه الأمير بجيشه يوم 12 جوان 1838، نحو عين ماضي، وحاصرها، واستمر الحصار ستة أشهر إلى يوم 17 نوفمبر 1838، فرفع بشروط ـ سبق ذكرها ـ وترك التجاني عين ماضي يوم 14 جانفي 1839، ودخلها الأمير وهدم أسوارها، واتجه التجاني نحو الاغواط، وأقام بها مؤقتا.

وبعد وفاة الحاج علي التماسيني سنة 1844، أصبح محمد الصغير شيخ الطريقة، ووارث البركة التجانية. وفي نفس السنة احتلت بسكرة (1844) فأشار الحاج علي التماسيني ـ حسب ما ذكرت المصادر الفرنسية ـ على المنطقة بعدم التعرض للفرنسيين لأن إرادة الله شاءت ذلك، وفي نفس السنة قدم الجنرال ماري مونج للأغواط، فخضع له أحمد بن سالم، حاكمها، ومقدم التجانية فيها، بنصيحة من شيخه التجاني، فعينه ماري مونج خليفة على الاغواط باسم فرنسا، ولما نزل ماري مونج في تجموت، استقبله احمد بن سالم والأعيان، ولم يخرج إليه محمد الصغير التجاني، واكتفى بإرسال رسالة ووفد، ولما سأل الضابط عنه، أخبر أنه لا يخرج للحكام والملوك، وأنه لم يقابل حتى الأمير عبد القادر بعد حصار عين ماضي، لأنه لا يعترف بأي سلطة زمنية. ولكنه خالف ذلك واستقبل القائد

"سانت آرنو"واحتفى بضيافة أتباعه، وأحسن استقبال بيليسييه في ديسمبر 1852، وكان آخر استقبال له للقادة الفرنسيين، وذلك قبل وفاته بشهرين، توفي محمد الصغير في فيفري أو "مارس" 1853. [78] وهكذا كانت التجانية محايدة بالنسبة لثورة الجنوب خلال الخمسينات من القرن التاسع عشر، وظهر ذلك في حصار الاغواط 1852. [79]

ب ـ تحليل سلوكه ومواقفه: عندما نبحث في العوامل الاجتماعية والنفسية التي أثرت في مواقف الشيخ محمد الصغير التجاني، نحو الأمير عبد القادر، نجدها مجسدة فيما يلي:

ـ الموقف المبدئي نحو السلطة، فقد سبقه والده الشيخ " أحمد التجاني" بإعلان موقفه المعادي لسلطة الأتراك، والرافض لحكمهم، والمحارب لهم، وكان ضحية لمواقفه، وتسبب في خروجه ـ القسري ـ والنهائي من الجزائر، والإقامة في فاس إلى آخر حياته، ونفس الموقف سجله نجله "محمد الكبير" عندما شق عصا الطاعة، فحارب العثمانيين، بهدف إخراجهم من البلاد، فلقي حتفه جراء تلك السياسة، ولم يشذ "محمد الصغير" عن مسار والده وأخيه، فأعلن مخالفته للأمير، ولم يجد بدا من محاربته.

ـ الاختلاف البين بين الأمير والتجاني في النظر إلى الزعامة الدينية، فكلاهما ينتمي لطريقة صوفية لها نفوذها، وصيتها، ورصيدها الروحي والاجتماعي، وحينئذ حاولت الطريقة التجانية أن تتميز، ونظرت للأمير من الزاوية الطرقية، ولم تعترف له بالزعامة الوطنية، أو التفرد بقيادة المقاومة .

ـ استياء التجانيين من أهل معسكر، وسكان سهل غريس، أهل الأمير وعشيرته القريبة، وهم ـ في اعتقاهم ـ أتباع القادرية التي كان "محي الدين" والد الأمير مقدما لها في المنطقة، وأتباعه متهمون بالغدر والتخاذل الذي أودى بحياة الشيخ "محمد الكبير" وهذا عامل مهم جعلهم يرفضون الانضواء تحت لواء الأمير عبد القادر، بل اتصل "محمد الصغير" بمقدمه على التجانية في الاغواط، وحاكمها "أحمد بن سالم" لتأليب الناس ضد الأمير ومحاربته.

وحتى المرات التي وقف فيها التجاني مع الأمير، فكانت قبل حصاره لعين ماضي عام 1838، وهو داخل ضمن المناورة السياسية، وكسب الوقت. ومنهم من يبرر ذلك لسلوك "محمد الصغير" ذلك الموقف، لأن الأمير عقد معاهدة تافنة، مما جعل مبرر الجهاد يتوقف، ولا داعي لدعمه، ولكن هذا مردود من عدة أوجه، لأن الأمير واصل المقاومة إلى آخرها، بينما سَالَمَ التجاني الفرنسيين، وانصاع لحكمهم.

ورغم وصف "الشيخ محمد الصغير" بالزهد في تولي المناصب، وتجنبه مقابلة الحكام، وخصوصا عندما طلب منه ذلك، ولكنه لم يتفطن، كيف استغلوا مواقفه تجاههم، في الجانب الايجابي، وقابلوا ذلك بمزيد من الاحترام والتقدير له ــ حتى يكسبوا وده ــ ويصبح صديقا حميما لهم. وهذا ما حدث عندما وصلت بعثة "سانت آرنو" إلى عين ماضي، وفرضت على سكانها ضرائب باهظة، وتردد التجاني في مقابلة القائد الفرنسي، ثم غير رأيه وقابله، وحينها رد القائد الضرائب، لتكون عربون المحبة والصداقة بين الطرفين.

وموقف الشيخ "محمد الصغير" المبدئي، كان الحد الفاصل بين سلوكين طرحا عند زعماء التجانية، بين محاربة السلطة الحاكمة، أو مسالمتها على الإطلاق، ولما كانت طبيعته تفضل السلوك السلمي، قام بمهادنة الفرنسيين، ما داموا يوفرون له الحرية في قيادة أتباعه، وممارسة حياته الطبيعية، وترك ذلك سلوكا عمليا في عقبه، وهذا يزيل كل غموض عن تفسير ما قام به والده في تأجيج الخصومة مع الأتراك، فجعلته غريبا عن وطنه، وأخيه "محمد الكبير" الذي كان ضحية لأتباعه الذين تخلوا عنه في آخر لحظة، ولكن شخصية "محمد الصغير " ومواقفه، كان

منطلقها طبيعته النفسية الانبساطية، التي كللت حياته بالتسامح في حدود المصلحة، مع الاستسلام والإذعان للقوى المتنفذة، والمحافظة ـ بكل وسيلة ممكنة ـ على ارث العائلة في الزعامة الروحية.

4 ـ تحليل شخصية ومواقف ابن ناصر بن شهرة:

هو القائد البارز، والزعيم المتميز في منطقة الاغواط، والصحراء الجنوبية الشرقية، وكانت له مواقف بطولية في قيادة المقاومة الشعبية ودعمها:

أ ـ مجمل سيرته الشخصية: هو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات، ينتمي إلى قبيلة المعامرة والحجاج، وأكثرهم من قبيلة الحرازلية الأرباع. ولد عام 1804 بالأرباع قرب ورقلة، ووالده يدعى ابن شهرة، وجده فرحات وكلاهما كانا قائدين وشيخين بالتوالي على قبيلة الأرباع. وكان له انتماء صوفي للطريقة القادرية، وارتبط بشيخها أحمد الشاوي بالاغواط، مما جعله مخالفا للتجانية، مثلما كان جده ووالده. وهذا لم يمنعه ـ في شبابه ـ من التزوج بابنة "أحمد بن سالم" التجاني، حاكم الاغواط، وهو دليل على المكانة التي تتمتع بها عائلته،[80] ولكنه طلقها عندما رفضت مرافقته في تنقلاته أثناء المقاومة. [81] كما أن والدها خضع واستكان للفرنسيين، ولما توفي والده ابن شهرة عام 1846، خلفه كآغا على الأرباع، ورفض الفرنسيون تثبيته في منصبه، وكان سببا قويا في إعلان الثورة ضدهم عام 1851، فاعتقلوه مع زعماء الأرباع ووضعوه في الإقامة الجبرية بمركز لهم قرب بوغار. ولكنه استطاع الإفلات منهم يوم 5 سبتمبر 1851م، وتصدى للجنود الفرنسيين الذين لحقوه، ونزع أسلحتهم، وأمرهم أن يخبروا رؤساءهم، بأنه لن يطيع السلطة الفرنسية، ويحاربها، تحت راية الزعيم الوطني، وصادف ذلك عودة الشريف محمد بن عبد الله من الشرق، وأعلن ثورته على الفرنسيين، فاتصل به لتنسيق العمل، ثم رجع ابن شهرة واستولى على قريته قصر الحيران يوم 31 جويلية 1852، واتصل به سكان الاغواط للتعاون، وبهذا انطلقت شرارة الثورة. واستمر الصراع مع العدو الفرنسي الذي انهزم في معركة 21 نوفمبر 1852، ودخل الثوار وعلى رأسهم ابن شهرة، مدينة الاغواط، وبدأوا في تحصين المدينة لمواجهة العدو في معركته الأخيرة، واتسمت بالعنف، وحسمت الأمر يوم 04 ديسمبر 1852، وأجبرت ابن شهرة والثوار على الانسحاب، واستولى الفرنسيون نهائيا على الاغواط، ووضعوا بها حامية عسكرية دائمة واتخذوها قاعة حربية لتوسعهم نحو الجنوب، فالتجأ ابن شهرة إلى الجنوب التونسي ينتظر تطور الأحداث، ورجع لمواصلة الكفاح الذي دام نحو 24 سنة من (1851 إلى 1875) في الاغواط والجنوب الجزائري وحتى الحدود التونسية، وخاض معارك فاصلة [82]. ودخل إلى تونس، وفي الجريد ونفزاوة قام بمناوشات، جعلت الباي التونسي يرغمه على مغادرة البلاد يوم 2 جوان 1875، إلى بيروت، واستقر بجوار صديقه محي الدين بن الأمير عبد القادر، ثم انتقل إلى دمشق، وعاش مع الأمير في عامه الأخير، ويومها تدخل ـ الأمير عبد القادر ـ لدى حكومة تونس من اجل تصفية أملاك ابن شهرة التي خلفها، وتوفي ابن شهرة في دمشق عام 1884[83].

ب ـ تحليل سلوكه ومواقفه: إن ابرز الحوافز النفسية لصنع الزعامة، هي الإرث العائلي، خاصة في قيادة القبيلة، وهو المنطلق في مسار حياة ابن ناصر بن شهرة، فضلا عن انتمائه للطريقة القادرية التي حملت لواء الدفاع عن الجزائر، من أول وهلة، وكان مقدمها وزعيمها الروحي "محي الدين بن مصطفى الاغريسي"، الذي واصل ابنه الأمير خط الكفاح، وأسس مدرسة للمقاومة، نشأ في كنفها، عدد من قادة المقاومة، ونهلوا منها معين البطولة

والإباء، ومنهم ابن ناصر بن شهرة ، وحينما جد الجد، كان أحد قادتها البارزين، الذين حموا الديار ودافعوا عن الذمار.

وقد ارجع "لويس رين" سبب إعلانه الثورة إلى رفض الفرنسيين لطلب تعيينه آغا على الأرباع منذ سنة 1844، وهي نظرة الفرنسيين، للتقليل من شأن زعماء المقاومة، والطعن في مواقف القيادات الوطنية، ولكن الواقع التاريخي يفند ذلك الزعم، فلو أراد ابن شهرة أن يتبوأ أعلى المراتب عند الفرنسيين، لحصل عليه بيسر، لأن صهره قائد الاغواط، والزعيم المدلل لدى الفرنسيين، والمخلص لهم "أحمد بن سالم" ، والذي سعى من اجل إدماجه في خدمة فرنسا، والتمكين لقدمها في المنطقة، ولكنه عجز، لأن ابن شهرة فضل مقاومتها، وخسر صهره، بل طلق ابنته التي اختارت والدها، عن مؤازرة زوجها في سبيل الجهاد، وهذا دفعه إلى مواجهة الاستعمار، وربط جهاده بالخط الذي رسمه الأمير في المنطقة.

وعندما سيطر الفرنسيون بقوة على الاغواط، بقي ابن ناصر بن شهرة مقاوما لهم في الصحراء، من المنيعة وعين صالح إلى وادي ريغ، ومن تقرت إلى وادي سوف والجريد التونسي، وناصر كل ثورة، وتعاون مع كل بطل مخلص، فتعاون مع شريف ورقلة محمد بن عبد الله، والشريف بوشوشة، ومحي الدين بن الأمير عبد القادر، وآل المقراني، وكان له دور بارز في رعايتهم، ورافق العائلة المقرانية المشردة إلى البلاد التونسية.

ولما أجبر ابن ناصر على مغادرة تونس، اتخذ المنفى الملائم، فعاش في بيروت إلى جانب صديقه في الجهاد محي الدين بن الأمير، وانتقل أخيرا ليعيش قرب ملهمه، وقائده في طريق الجهاد، الأمير عبد القادر بدمشق، وعاش معه آخر لحظات حياته.

إن الزعامة التي تمتع بها ابن ناصر بن شهرة هي الزعامة الوطنية المشرفة، النابعة من الرصيد النفسي، والذي أثر فيه جده ووالده، ونماه جهد الأمير في جهاده الذي بلغ الآفاق، ولهذا تعتبر شخصية ابن ناصر من الشخصيات الايجابية، التي صنعت بسلوكها البطولة في أسمى صورها، وصارت مثالا يحتذى في مستقبل الأيام .

الخاتمة :

عرفت الجزائر صراعا شديدا، بين قيادة وطنية للمقاومة الشعبية، وبين الاستعمار الفرنسي الذي احتل البلاد، وفرض سياسة الاستعباد على الشعب الجزائري البائس، واتخذ له أعوانا من الأعيان والوجهاء، واستلزم ذلك تسجيل مواقف نحو المشروعين ـ الوطني والاستعماري ـ والتي توزعت بين الدعم أو المواجهة، في كل المدن التي وصلها الاحتلال، وكانت مدينة الاغواط في مقدمتها. وقد سجل التاريخ مواقف زعمائها وأعيانها، ويمكننا الوقوف عند حدود الدراستين، التاريخية ونتائجها، والسيكولوجية ومظاهرها:

ـ أما موقف أعيان الاغواط من سلطة الأمير عبد القادر، وتحركاته في المنطقة، فقد انقسمت بين التأييد والمعارضة ففي الوقت الذي أيده فيه الحاج العربي، فان احمد بن سالم ، والشيخ التيجاني ، وقفا ضده وحارباه بل اتجها إلى القوات الفرنسية وتعاونا معها. أما ابن ناصر بن شهرة فقد واصل مسيرة الأمير في المنطقة، حاملا مشعل المقاومة التي فقهها في صفوف مدرسة الأمير العسكرية والروحية.

ـ أما المواقف من السلطات الفرنسية، فالفئة التي استقطبها الاستعمار، من شيوخ القبائل ورؤساء العائلات الكبيرة ، كانت متعاونة معه إلى حد بعيد، وحينئذ برز نوع جديد من الفئات الاجتماعية ، هم أتباع وخدام الاستعمار، على

حساب إخوانهم الجزائريين، وساعدوه على بسط سلطانه، ومنهم القايد احمد بن سالم كان سببا في جلب الاحتلال للأغواط ، وتوسيع وبسط نفوذه.

ـ استندت فرنسا في اختيارها لمن يخدمها معتمدة على الشهرة والنفوذ لدى الزعماء في أوساط السكان، وسخرتهم لتنفيذ مشاريعها الاستعمارية، والقضاء على المقاومة الشعبية ورجالها، وهذا ما فعلته مع الشيخ التيجاني الذي كان يحظى بنفوذ كبير في كامل الصحراء وقد حاولت أن تفعل الشيء ذاته مع ابن ناصر بن شهرة ، ولكنه لم يخضع لسياسة الترغيب ولا لسياسة الترهيب.

ـ قاد ابن ناصر بن شهرة مقاومة باسلة شملت جزءا هاما من الصحراء الجزائرية شكلت خطرا على الوجود الفرنسي حيث تحالف مع كل قادة المقاومة الشعبية، وهذا ما جعل الإدارة الفرنسية تسخر كل ما لديها من إمكانيات لتقضي عليه ضنا منها أن هذا سيقضي نهائيا على المقاومة.

أما الدراسة السيكولوجية، فهي تبين الدوافع النفسية، والأحوال التربوية، الكامنة في ذاتية الزعامات المحلية، في منطقة الاغواط، وكانت أحسن معبر عن المواقف السابق ذكرها في الدراسة التاريخية، وأهمها:

ـ كان الإرث العائلي، للشخصيات المحلية، عاملا قويا، دفعها إلى طلب المسؤولية السياسية، والتشبث بها، مواصلة لرئاسة القبيلة، أو العائلة؛ فالحاج العربي، هو سليل الحاج عيسى، جامع شمل سكان المنطقة، وصاحب فضلها، وهذا الإحساس، متأصل في نفسية حفيده، الذي قبل خلافة الاغواط ممثلا للأمير. بينما تبوأ احمد بن سالم مكانته بين السكان، بارتباطه القوي مع القبائل الفاعلة، فهو من عائلة أولاد زعنون، وربط الصلة ومتنها مع أولاد سرغين بالمصاهرة، فدانت له المنطقة بأكملها. أما الشيخ محمد الصغير التجاني، فهو الزعيم الروحي ـ بدون منازع ـ بإشرافه على الطريقة التجانية التي ورثها عن والده، ذائع الصيت، وأخيه الأكبر. أما ابن شهرة فقد آلت إليه زعامة قبيلته الأرباع، خلفا لوالدة، وتوج بالقبول الشعبي. فلا شك أن هذا العامل، له ابعد الأثر في تلك النفوس، التي رسمت خط المواقف المتخذة.

ـ كانت الخلفية الدينية، والانتماء للطرق الصوفية، إحدى الدوافع النفسية الموجهة للمواقف، فالحاج العربي، وابن شهرة، كلاهما سارا في موكب الأمير وقيادته، لأن القادرية هي الجامع لهما في هذا السبيل، بينما اختار أحمد بن سالم، حاكم الاغواط، الطريقة التجانية، ولقي الدعم الكامل من شيخها محمد الصغير، الذي منحه رتبة "مقدم" للطريقة في مدينة الاغواط. بينما يرى الشيخ محمد الصغير، نفسه الزعيم الروحي المتميز، ولا ينتمي لأي سلطة أخرى، ومن هنا بنيت المواقف المختلفة.

ـ كل الزعامات تبحث عن السلطة وبريقها، لتحقيق مصلحتها المشروعة، أو ما تحصل عليه بالتنازل عن قيمها الأخلاقية والاجتماعية، فالتربية الذاتية، هي المعلم الفاصل، بين من سيطرت عليه الدنيا، فنبذ القيم جانبا، وتحالف مع العدو، وبين من آثر الآخرة، وضحى بنفسه من اجل بلوغ الغاية النبيلة، فالحاج العربي ورغم انتمائه لسلطة الأمير، له رغبة في ضمان حقوقه المسلوبة، والرد الانتقامي من أحمد ابن سالم، بينما فضل هذا الأخير تولي قيادة الاغواط، لأن حبه كان مفرطا في الزعامة، ويرى أنه الأحق بها دون غيره، والأولى بتولي تلك المسؤولية، وقبل من اجلها كل عرض، ولو كان من خصمه الأمير عبد القادر. وقبل الزعامة بدعم من السلطة الفرنسية الظالمة، وبتوجيه من أبيه الروحي، الشيخ التجاني، كل ذلك تحت المظلة الفرنسية، وكانت الضريبة، هي تمكين الاستعمار

في البلدة، وحتى يقف ضد المقاومة الوطنية، وكان الغطاء الديني مبرراً في مهادنة المستعمر ومسالمته، واستمر ذلك بعد احتلال المدينة، وذلك يختلف مع صاحب "معاهدة تافنة"، الذي حارب المستعمر بعد نقضها، فكانت هدنة مؤقتة. وقد نجح تلميذه ابن ناصر بن شهرة في محاربة العدو، وتكبد من اجل ذلك التشريد، والنفي، والموت خارج وطنه، وكان بإمكانه أن ينعم بالسيادة والسعادة في بلدته، ولكنه يخسر قيمه ومبادئه، ففضل الأولى، وصار نبراسا في التاريخ.

وخلاصة الدراسة السيكوليوجية، للمواقف التاريخية، تؤسس لمنهج جديد، في الدراسات العلمية، التي تجعل التوأمة بين العلوم أكثر من ضرورة، للكشف عن النتائج الخفية، والتي تتشرف بها الدراسات الأكاديمية، في الجامعة الجزائرية.

الهوامش او المراجع:

[1] عيسى بوقرين، **مقاومة ابن ناصر بن شهرة : 1851-1875** ، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2011- 2015 ،(غ.م)، ص 25.

[2] أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1، ص ص 132-137.

[3] نفسه، ص203.

[4] محمد بن عبد القادر الجزائري ، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر** ،ج1، المطبعة التجارية ، مصر ، 1903، ، ص196 .

[5] دوك دي توماس ، **الصحراء الجزائرية** ، تر: قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 43.

[6] محمد علاق، **الأمير عبد القادر في كتابات العسكريين الفرنسيين**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2011-2012،(غ.م)، ص68.

[7] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ص 203 .

[8] إبراهيم مياسي ، **قضايا من تاريخ الجزائر المعاصر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص115 .

[9] نفسه ، ص 115.

[10] شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، تر وتق: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص129 .

[11] تلمساني بن يوسف ، " الأمير عبد القادر والتيجانية " ، **الرؤية** ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، الجزائر، العدد الأول، جانفي-فيفري 1996، ص ص 72-73.

[12] يوسف مناصرية، **مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1847-1882**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص29.

[13] Saint Arnaud. **Siège d'Ain Madi, Par Elhadj Abdelkader Ben Mahi-eddine .R.A.F**.N8.1864.P 368.

[14] إبراهيم مياسي ، المرجع السابق، ص 116 .

[15] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 205 .

[16] إبراهيم مياسي ، المرجع السابق ، ص 116 -117.

[17] Charles-Andrée Julien. **Histoire de L' Algérie contemporaine .la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871** ,j.E.P .Algérie .2005.p150.

[18] Léon Roches .**Dix ans a Travers L'islam 1834-1844**, librairie académique didier ,paris , 1884,p147.

[19] Saint Arnau.p417.

[20] إبراهيم مياسي ، المرجع السابق ، ص 121.

[21] دوك دي دوماس ، المرجع السابق ، ص44.

[22] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 205

[23] نفسه ، ص 205.

[24] إبراهيم مياسي ، المرجع السابق ، ص 121.

[25] دوماس ، المرجع السابق ، ص44.

[26] إبراهيم مياسي ، المرجع السابق ، ص 121.

[27] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 205.

[28] إبراهيم مياسي ، **روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية**، دار هومة، الجزائر،2011 ، ص 122.

[29] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 205.

[30] ابن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود**، تح يحيى بوعزيز، دار البصائر، ط1، الجزائر، 2007، ج2، ص 201.

[31] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 205 -206.

[32] دوماس ، المرجع السابق ، ص 46.

[33] إبراهيم مياسي ، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية : 1837-1934**، دار هومة ، الجزائر ، 2005، ص 100.

[34] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 279- 280 .

[35] إبراهيم مياسي ،من قضايا تاريخ الجزائر، المرجع السابق ، ص 122.

[36] دوماس ، المرجع السابق ، ص47.

[37] إبراهيم مياسي ، من قضايا تاريخ الجزائر، المرجع السابق ، ص ص 122-123.

[38] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 280-281.

[39] إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر، المرجع السابق ، ص 124.

[40] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص 281.

[41] إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر ، المرجع السابق، 126.

[42] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص 281.

[43] عيسى بوقرين ، المرجع السابق ، ص 45.

[44] إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر، المرجع السابق ، ص 128.

[45] إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 132 - 135.

[46] عيسى بوقرين ، المرجع السابق ، ص 45.

[47] إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر، المرجع السابق، 136.

[48] نفسه، ص ص 137-140.

[49] Melia(j).**Laghouat ou les maisons entourées de jardins** .Libairieplon.paris .1923.p45.

[50] إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 144-147.

[51] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص ص 362-363.

[52] عبد الرحمن الجيلالي ، " ابن ناصر بن شهرة" ـ في ـ مدونة ، **من أبطال المقاومة الشعبية بالجنوب**، الملتقى الوطني الثالث للمقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي بالجنوب، المنعقد يومي 23-24 ماي 1998 بالاغواط، نشر وزارة المجاهدين وجمعية أول نوفمبر 1954 بالاغواط، ص 16

[53] عيسى بوقرين ، المرجع السابق ، ص 53.

[54] يحي بوعزيز ، **كفاح الجزائر من خلال الوثائق** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986، ص 152.

[55] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص ص 302-312.

[56] نفسه، ص 358.

[57] عيسى بوقرين ، المرجع السابق ، ص 56.

[58] عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 16.

[59] عيسى بوقرين ، المرجع السابق ، ص ص 57-58.

[60] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص359.

[61] عيسى بوقرين ، المرجع السابق ، ص 60.

[62] نفسه ، ص 61.

[63] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص359.

[64] ج ايفر، الاغواط ـ في ـ **دائرة المعارف الإسلامية**، المجلد الثالث، دار الشروق، القاهرة، 1933، ، ص 576.

[65] آن تايلور وآخرون، **مدخل إلى علم النفس**، ترجمة عيسى اسمعان، ج1،منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1996، ، ص 09.

[66] محمود عرفات الخواجا: **قواعد التحليل النفسي لشخصيات القادة والزعماء** ، مدونة الدكتور خضر عباس الالكترونية، تم الاطلاع يوم 2017/09/12 .

[67]حسن فوزي النجار، **التاريخ والسير**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار العلم، القاهرة، 1964، ص ص 26-35.

[68] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص202.

[69] نفسه، ص ص 198- 280.

[70] ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تم الاطلاع يوم 2017/11/01.

[71] أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ص 206.

[72] نفسه، ص 206.

[73]عبد الباقي مفتاح، **أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه**، الوليد للنشر، الوادي – الجزائر، (ب ت)، ص99.

[74] نفسه، ص ص 161-162.

[75] **مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار**، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص ص 159-160.

[76] عبد الباقي مفتاح، ، المرجع السابق، ص192.

[77] تلمساني بن يوسف، المرجع السابق ، ص ص 73-74.

[78] أنظر: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص ص 205 – 207 .

[79] أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 384.

[80] يحي بوعزيز ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث، ط1، قسنطينة- الجزائر، 1980، ص 177.

[81] عبد الرحمن الجيلالي ، " ابن ناصر بن شهرة" ـ في ـ مدونة ، **من أبطال المقاومة الشعبية بالجنوب**، المرجع السابق، ص 14.

[82] احمد بن أبي زيد قصيبة " ابن ناصر بن شهرة أحد ابطال ثورة 1871 " ـ في ـ مدونة ، **من أبطال المقاومة الشعبية بالجنوب**، المرجع السابق، ص ص 49-52.

[83]عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق، ص ص 21-22.